التوحيد فى تطوره التاريخى ..

٦ التوحيد يمان

احتفلت الأوساط السياسية فى اليمن الجنوبية بصدور هذا الكتاب [١] أيما احتفال وتصدرت الكاتبة ثريا منقوش شاشة التليفزيون ومكرفون الإذاعة وقاعات المحاضرات الجامعية وتوجت ذلك كله بمنصب فى إدارة جامعة عدن ، بالإضافة إلى انتدابها للتدريس بكلية التربية ..

قيل : لأنها زوجة رئيس اتحاد الكتّاب ، وقيل : لمكانتها فى الاتحاد النسائى وقيل لأنها قدرت على تسجيل ولائها للفكر الماركسى ، بمناهضتها الفكر الدينى ، الذى لايزال يتحرك بقوة فى خلايا المجتمع .

والكتاب لايتجاوز ماجاء فى كتاب (حول الدين) لكارل ماركس وفريدريك أنجلز[٢] فى إطار من الأساطير التى حفلت بها كتب التاريخ العربى وكتب التفسير .

وللأسف ماتتناوله هذه الكتب من أخبار الحياة الإنسانية الأولى وما صحب هذا التاريخ من مبالغات أسطورية حول الشخصيات والأحداث الواردة فى القرآن الكريم أصبح مادة سهلة التناول ، بين أيد مدرّبة على التزييف والتشويه ، بحيث تأخذ (البرىء بالسقيم ، والصالح بالطالح ، والطيب بالخبيث) .. وهذا لايرجع إلى غفلة حملة الأقلام قديماً ، بقدر مايرجع إلى غفلة المعاصرين الذين يفتئون يرددون هذا الآفات الفكرية وكأنها مقدسات .

---

(١) دار الطليعة - بيروت سنة ١٩٧٧ م .

(٢) ترجمة زهير حكيم - دار الطليعة سنة ١٩٧٤ م

ولهذا تقول الكاتبة : (ليس لنا من هدف فى هذه الدراسة سوى أن نوقظ عند القارئ عقلانيّته ليكون هو الحكم فى قضية من أهم قضايا الفكر الدينى) ص ٩٥ .

وهو هدف يردده كل كتّاب (اليسار الإلحادى) وبين أيديهم من كتابات القدامى والمحدثين مايملأ الأبواق باللُّهاث ، لكنهم من غفلة أيضًا لايقعون فى مبالغات الافتراء على الدين أو فى إنكار الحقيقة الدينية فحسب ، بل يقعون فى عدم التمييز بين الحقيقة والخيال وبين الواقع والوهم وهو مانكب به (دراويش الفكر الدينى) .

التوحيد والموحدون الأول :

تقول : (لقد استفاد الإسلام من المعلومات التاريخية عن الحضارة اليمنية ، بعد سقوطها وخرابها الكلى ، الذى دفن معه أحقية الإنسان اليمنى فى الدعوى التوحيدية كما أوردتها النقوش ، والذى تبطن من نتيجة فقدان الذاكرة عند اليمنيين فى فترة انحطاط حضارتهم وتحطمها - ببطانة دينية مثالية ، أخرجت الوقائع التاريخية كما ظهرت فى الكتب المقدسة وفى مقدمتها القرآن) ص ٤٣ .

فما جاء فى القرآن ، ومن قبله التوراة ، إنما هو فكر إنسانى ، استعان بأخبار دينية قديمة أكسبها تطاول الزمن (بطانة دينية مثالية) وذلك لأهداف سياسية .

(لاشك وأن تبنى القرآن لأخبار الأنبياء وتسليط الضوء على أخبار أقوام الجزيرة - وجنوبها على وجه الخصوص - قد جاء ليضع السوط الربانى على رقاب أتباع الدعوة الجديدة حين كان يعجز عن إقناعهم بالترغيب ، وحين كان ينتصب أمام الدعوى خصوم عديدون يقارعون الحجة بالحجة مدركين الأهداف البعيدة للدعوة واستراتيجية الدعوة على المدى القريب والبعيد بحكم ممارستهم للسلطة فى مجتمعهم القرشى .

واستمانت الدعوى - من أجل تثبيت مبادئها وقيمها الجديدة - تطويعًا لنفسية مجتمع الجزيرة العربية لتقبل السلطة القادمة من صفوف الطبقات الدنيا فى المجتمع القرشى ، بعد أن بقيت لفترات متعاقبة فى يد طبقة التجار والأغنياء من قريش .

واستخدمت بذكاء المشاعر الدينية الهلامية الملامح وتم تركيزها فى الدعوى الجديدة ، بعد أن شذبت بالترغيب والترهيب) ص ٣١ .

تكررت عبارة (وضع السوط الربانى على رقاب أتباع الدعوة الجديدة) بصور مختلفة ، مع أنهم وقد أصبحوا (أتباع الدعوة الجديدة) ليسوا فى حاجة إلى أخبار (تفزع) وتشكل (مظهرًا من مظاهر الإرهاب الروحى) ص ٣٢ .

لكن الكاتبة تفكر بوجدان الحياة الحزبية الماركسية ، ولهذا تحولت الدعوة الإسلامية إلى ثورة (طبقية) داخل (المجتمع القرشى) ، وتحول الأنبياء إلى أجداد ، خلع عليهم الزمان طابع التقديس .

(يقول أنجلز : « إن الأنساب الواردة فى سفر التكوين ، والتى تظهر فى صورة تسلسل نوح وإبراهيم .. الخ هى تعداد صحيح تقريبًا لقبائل البدو فى ذلك العصر طبقًا لقرابتهم اللسانية الكبيرة والصغيرة الخ) .

(إن التعداد الوارد فى سفر التكوين يؤيده - فى كثير أو قليل - الجغرافيون القدامى،كما أن الرحالة المحدثين قد برهنوا أن معظم الأسماء القديمة مازالت موجودة فى بعض التغيرات اللسانية) .

(وترى الماركسية أن حقيقة تلك التسميات - بنى ابراهيم ، بنى هود .. إلخ . إنما يعود إلى فترة موغلة فى القدم عرفت بالعهد البطريركى ، وهو العهد الذى استحوذ فيه الرجال على أدوات الانتاج ، وأقرت سلطتهم بعد أن لحقت الهزيمة التاريخية العالمية بالجنس النسائى ، وفى ذلك العهد خضعت العائلة للسلطة الأبوية ، وخضعت العشيرة بعد ذلك لرجل كبير منها ، وأصبحت الثورة المجمعة من فائض إنتاج العشيرة ملكًا له ، واكتسبت القضية السلالية صفة القدسية ،

وأصبح من الطبيعى أن يقدس الجد الذى تنسب إليه القبيلة) .

(واستمر التطور على هذا المنوال ، وخف التقديس للعادة القديمة ، ووصلنا إلى ماقبل الميلاد بمئات من السنين ، فإذا بالعبادة للجد الأكبر تصبح مجرد تقديس ، ويصبح معبود الأمس نبيًّا ، يمثل فى الوقت نفسه النبوة والسلالية) ص ٤١ / ٤٣ .

وهذا واضح فى قصة إبراهيم الذى فرض نفسه على الذاكرة التاريخية (فحفظت اسمه فى التوراة ، كما حفظته بقية القبائل العربية فى ذاكرتها ، ونسى هود وصالح ولقمان ، حتى جاء القرآن ليذكر) ص ٤٣ .

فمن أين للقرآن أخبار هود وصالح ولقمان ، ولم تحفظها الذاكرة التاريخية ، ولم تتحدث عنها النقوش القديمة ؟

تقول : (لقد لعبت الحكاية الأسطورية فى السرد القرآنى دورًا كبيرًا فى التأثير على أتباع الرسالة ، ذلك أنها تشكلت إثر تغيرات وتطورات مادية ملموسة موضوعية حدثت فى جنوب الجزيرة عقب تحول طرق التجارة وانتشار الفتن والقلاقل بين القبائل ، والتدخلات السياسية والعسكرية من قبل الحبشة فى الشئون الداخلية وغيرها من الأوضاع والظروف الموضوعية التى أعقبتها انهيارات تامة فى اقتصاديات جنوب الجزيرة تبعها تحطم شامل لتمدنها العريق وحضارتها العظيمة آن ذاك) ص ٣٣ .

فكأن هذه (التطورات المادية) نبهت (الذاكرة التاريخية) فاستعادت مانسيت لكن (الذهنية الإقطاعية الغيبية) فسرت هذه الأحداث (وكأنها كوارث طبيعية حلت بأقوام جنوب الجزيرة ، ذلك أنها كانت صعبة التفسير والفهم على العقلية العربية الساذجة والبسيطة فأخرجت بقالب أسطورة) ص ٣٢ .

وأراد الرسول (على لسان الأنبياء أن يثبت فى أذهان أتباعه الويلات التى حلت بحضارة جنوب الجزيرة لأهداف سياسية محددة) ص ٢٦ .

وتسأل عن هذه (الأهداف) والحركة (داخلية) لاتتجاوز ثورة (البروليتاريا) القرشية على الرأسمالية المتسلطة .

كما تسأل عن السر فى الوقوف عند (هود وصالح) اللذين قد يصح نسبتهما إلى جنوب الجزيرة ، من بين خمسة وعشرين نبيًّا ورسولا جاء ذكرهم فى القرآن .

كما أن القرآن لم يعن بتفصيل أحداث هذين الرسولين اليمنيين كما عنى بقصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى .

ثم إن الأحداث اليمنية التى حركت ذاكرة التاريخ كانت فى اليمن الشمالى بعد تخريب سد مأرب .

فما الذى أصاب ذاكرة اليمن فى الجنوب ؟

يجب أولا أن نعرف أن المؤرخين اليمنيين ، قديمًا وحديثًا ، حريصون على أن ينفذوا بالتاريخ اليمنى عن طريق الهجرات ، أو عن طريق الحروب ، إلى أنحاء مختلفة من العالم على مستوى آسيا وأفريقيا وأوربا ، وعلى هذا يمكن أن يكون الدم اليمنى قد تسلل إلى جميع هؤلاء الأنبياء .

لكن الكاتبة لاتقر هذا الاتجاه الذى يرتكز فى جملته على الاعتراف بما جاء فى التوراة والقرآن من أخبار الأنبياء .

الأنبياء من وجهة نظر العلم المثالى ..

(لقد بالغ « فيلبى » فى تقديراته بالنسبة لقدم الحضارة اليمنية ، فأوغل فى التاريخ وذهب فى المدى آلاف السنين ، ليطوع الأحداث الزمنية لآرائه متجاوزًا فى ذلك - فى بعض الأحيان - حدود الأعراف والتقاليد العلمية والتاريخية) .

(كما وأن هذا الرأى لفيلبى يعطى الحضارة اليمنية الأسبقية التاريخية والزمنية على حضارات بابل وكنعان إلخ ، وهذه نظرية دحضت الآن ، على ضوء ما اكتشف من نقوش تحمل التقويم الحميرى الذى يرجعها إلى عدة مئات من السنين قبل

الميلاد ، كما وأن النقوش والإثارة البابلية المكتشفة تؤكد أقدمية الحضارة فى بابل على كثير من حضارات الجزيرة) ص ٤٦ / ٤٧ .

وجاء الدكتور أحمد سوسة فى كتابه (العرب واليهود فى التاريخ) ليثبت (أصل ونسب شخصية إبراهيم الدينية ، لتصبح شخصية تاريخية حقيقية) ص ٤٨ .

(لقد قام الدكتور سوسة بعملية الربط بين الإله « سين » المكتشف فعلا فى الآثار والنقوش اليمنية ، ويقع معبده فى الحريضة بحضر موت ، وبين شخصية إبراهيم وفكرته التوحيدية التى ورد ذكرها أول ماورد فى التوراة) ص ٤٨ .

(إن التوحيد الذى عثر عليه فى النصوص والآثار التاريخية لايشير مطلقاً إلى التوحيد بالإله الدينى ، والذى جاء الإيمان به فى مرحلة متأخرة من الحضارة الإنسانية لاتتجاوز القرون الأولى ، قبل الميلاد مباشرة .. وماعرف من توحيد فى النصوص القديمة المعثور عليها لم يكن سوى توحيد للآلهة الكثر فى إله واحد ، تمثل فى الشمس بالنسبة للمصريين « الفكرة الأخناتونية ، وفى القمر بالنسبة لأقوام جنوب الجزيرة واختلف اسمه من منطقة إلى أخرى) ص ٤٩ .

(ومما تجدر الإشارة إليه أن فكرة التوحيد اليمنية قد جاءت بعد فكرة التوحيد الأخناتونية ، وفق آراء العلماء المعاصرين الذين يعيدون تاريخ نشوء الحضارة اليمنية إلى ماقبل الميلاد بعدة قرون من الزمن) ص ٥٠ .

(وذلك يعنى أن فكرة التوحيد اليمنية المتجسدة فى الإله « سين » أو « المقه » قد ظهرت فى الجزيرة بعد قيام الحضارة فى ربوعها ، فكيف ظهر الإله سين قبل ذلك فى العراق) ص ٥٠ .

و (كيف حدث أن أصبح إبراهيم وهو ابن صانع الأصنام الفقير واحداً من الملوك الثلاثة الذين دعوا إلى التوحيد ، وسكنوا فى المنطقة الجنوبية من بابل ، بناء على المعلومات التى يوردها فيلبى ، فى نص ورد له فى كتاب « مقومات الإسلام »

obeikandi.com

والتى تبناها الدكتور سوسة ، وأوردها كمعلومات يقينية يستدل بها على أن هجرة إبراهيم وشخصيته حقيقة واقعية) ؟ ص ٥١ .

(لقد وقع الدكتور سوسة فى كثير من التضارب فى المعلومات التاريخية وهو يقوم بمحاولة تثبيت شخصية إبراهيم الأسطورية ، من خلال التداخل التعسفى بين معطيات العلم الحديث والآراء الغيبية المسيطرة على فكره مسبقًا) ص ٥٢ .

* ه هذا الإنكار لشخصية إبراهيم لايتفق مع ماجاء على لسان أنجلز والماركسيين من أن نوحًا وإبراهيم وغيرهما من الشخصيات الواردة فى التوراة حقيقة يؤيدها (فى كثير أو قليل الجغرافيون القدامى والرحالة المحدثون) ، لكن كأجداد لا كأنبياء .

ثم إن الآية الكريمة : (ماكان إبراهيم يهوديًا ولانصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وماكان من المشركين) (آل عمران – ٦٧) لاتعنى (دحض آراء اليهود والنصارى وإرجاع نسبته إلى الجزيرة العربية) ص ٥٣ . وإنما تفيد أن مادعا إليه إبراهيم إنما هو العبادة الخالصة لله ، بعيدًا مما دخل على اليهود من أن (عزيرا) ابن الله ، ومادخل على المسيحية من أن المسيح ابن الله ، فهو دين حنيف (خالص) لله ، منزه عن الشرك ، يسلم الأمر لله ، سبحانه ، وهذا ماتؤيده الآية التالية (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين) (آل عمران - الآية ٦٨) .. فالانتساب إلى إبراهيم يقوم على الالتزام بتعاليمه ، لا على كونه أبا أو جدًا .

وتدعى الكاتبة أن (تلك الشخصيات الأسطورية ، كنوح وإبراهيم وسليمان وغيرهم) اتخذتهم التوراة (محور الحوادث التاريخية لأقوام الجزيرة رغبة منها فى ربط جميع حوادث التاريخ ببنى إسرائيل والذين ينتسبون إليهم باعتبارهم جذور الجنس البشرى فى شمال الجزيرة) .

(وقد جاء تسجيل حوادث التوراة خدمة لمحاولة « قورش » التى كانت تهدف

إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين لحماية الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية من الهجمات البيزنطية من جهة الغرب) ص ٥٤ .

(وجاء المدافعون عن عروبة إبراهيم منطلقين من نفس المنطلق ، متأثرين بآراء التوراة ، مخضعين معطيات العلم ، من تنقيبات وحوادث تاريخية مسجلة ، للفكرة المقدسة التى نشئوا وترعرعوا عليها) ص ٥٥ .

(يتحدث القاضى الشماحى – فى كتابه « اليمن والإنسان والحضارة » عن قوم عادٍ الأول بأنهم كانوا على جانب مهيب من القوة العسكرية والجسمية والحضارية والاقتصادية وبأن أرضهم كانت على جانب كبير من الخصب والاعتدال ، وأن بلادهم كانت ذات جنات وأنهار ونعم وعيون وقد استخلفهم الله على ذلك بعد حوادث الطوفان « النوحية » ، وأنه أرسل لهم هودًا ، إلاّ أنهم أصروا على كفرهم ، وحدث ماحدث لهم ، وعلى إثره تحول هود ومن معه من الأحقاف إلى حضرموت ، ومات هناك ، وأنه قبر فيها ، وأثره اليوم القبر المعروف « بقبر النبى هود » وهو مازال مزارًا حتى يومنا هذا) ص ٥٥ / ٥٦ .

(إن تلك المعلومات التى حصل عليها الكاتب على أثر تنقيبات أركيولوجية حدثت فى المنطقة ، وجاءت أخبارها لتنبئنا بالعثور على أسلحة صوانية ، وقطع متحجرة من بيض النعام ، وعلى حد معلوماته ، فإنها تعود إلى ماقبل خمسة آلاف عام قبل الميلاد ، تلك المعلومات العلمية ، يحاول الكاتب إخضاعها للمعتقدات الغيبية المسبقة فى ذهنه ، ليعمدها بتنقيبات العلم ، بعد عملية المخرج التعسفى بين العلم والقيم والأفكار المثالية) ص ٥٦ .

(وزيد بن عنان – فى كتابه الجديد « تاريخ اليمن القديم » – قد اعتمد على معلومات أوردها كاهن كلدانى ، يدعى « بروسوس » وهو كاهن عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وتحدث عن أخبار موغلة فى القدم تعود - لو أننا قمنا بجمع

obeikandi.com

وطرح تلك السنين - إلى ماقبل العشرة الآلاف سنة قبل الميلاد ، قبل حياة ذاك الكاهن) .

(ويعتبر كلام الكاهن كمسلمات بديهية ، ويصبح مصدراً مهماً فى تناول الأحداث التاريخية على الرغم من ضياع الكتاب ، ونقل المعلومات عن الناس بعد ثلاثة قرون من حياة ذلك الكاهن) ص ٥٩ .

.. وبهذا تنكر الكاتبة صدق الأخبار الواردة فى التوراة والقرآن وإن استعان المؤرخون بالنقوش والتنقيبات الأركيولوجية ، وبمعطيات العلم الحديث ، وإن رجعوا إلى مؤرخين سابقين على (الميلاد) .. أما أفكارها هى فهى مسلمات مادامت قد وردت على لسان أنجلز وماركس ومن نحا نحوهما من الاشتراكيين الماديين .

الدين فى اليمن ..

ومع هذا ، فهى تعتمد فى فصل كامل تحت هذا العنوان على مؤرخين إسلاميين كالهمدانى صاحب (الإكليل) ، والفخر الرازى صاحب (تاريخ مدينة صنعاء) وجواد على صاحب (المفصل) .

ولم تحاول أن تسأل نفسها : لماذا تأخذ أخبار هؤلاء المؤرخين عن الدين اليمنى ، وتنكر أخبارهم عن أنبياء الله ، مع أن أخبار هؤلاء الأنبياء وردت فى مصادر أكثر توثيقاً .

ثم إذا كانت تعترف بوجود إله أو آلهة ، فلم لاتصدق أن هناك رسلا لهذا الإله أو هذه الآلهة ؟

إننا لانستطيع أن ننكر ما لا نعرف ، وإلا فهذا هو الغباء بعينه ، ولكننا نستطيع أن ننكر ماتقوم الأدلة القاطعة على عدم وجوده أو على استحالة وجوده .

إنها تعترف بعباده الإله « ود » ، و « أيل » ، « والعزى » ، و « الزهرة » ، و « سين » ، و « المقه » ، « وشمس » ، « ويهوه » وقد وردت نصوص عن

« الرحمٰن » و « الرحيم » ، ووردت عبارة « هلاه » بمعنى « اللهم » ص ٧٩ / ٨٠ .

وتذكر (أن تسمية سيناء إنما هى مأخوذة من الإلٰه اليمنى الحضرمى « سين » الذى حمله أصحابه مع غيره من الآلهة إلى شمال الجزيرة ويعتقد « فيلبى » أن الإلٰه « سين » الذى ورد اسمه فى النقوش البابلية إنما هو « سين » إلٰه قبائل حضرموت حمله الحضارمة إلى العراق فى رحلاتهم التجارية وحسب ترجيحاته ، فإن فكرة التوحيد الإبراهيمية قد جاءت متأثرة به) .

وأن « ودًّا » (الإلٰه الرئيسى لثمود ، وحامى حماها انتشرت عبادته فى أجزاء كثيرة داخل الجزيرة العربية ، وتعبدت له قريش والخزرج وتميم إلخ) ص ٧٩ .

وأن الإلٰه « أيل » (قد عُبد عند الثموديين ، فتسمَّوا باسمه تيمنًا) ص ٨٠ وهذ الإلٰه إلٰه بنى اسرائيل ، وكلمة إسرائيل ذاتها تفيد معنى (نجى الله ، أو (صفى الله) .

وأن « يهو » (قد عبد عند جميع الأقوام العربية الغربية ، ويرى فرويد أنه إلٰه مديانى حمله موسى المديانى [1] إلى شعبه الجديد) ص ٨١ .

وأن « سين » يعنى السماء ، كما يعنى القمر ، وقد اشترك الثموديون مع غيرهم من أقوام جنوب الجزيرة فى عبادة الإلٰه « عثترسين » أو عثتر السماء » مع تحوير بسيط فى التسمية حيث كتبت فى النصوص الثمودية « عثتر سم » ص ٨٠ .

والإلٰه « المقه » (يلفت أنظار العلماء الأوربيين على الأقل ، لأنه يتمتع بمكانة عليا فى عبادات الجنوب ، واحتل مكان الصدارة فى عبادات شعوب المنطقة ، وأصبح الإلٰه القومى لتلك الشعوب باختيار طوعى ، أو بإكراه حين تراجعت أمامه الآلهة وتقدم هو أمامها عقائديًّا وتاريخيا) ص ٨٧ .

---

(١) لعله يشير إلى ما جاء فى القرآن عن رحلة موسى إلى مدين ، خوفًا من فرعون ، وتتلمذ على نبى الله شعيب عشرة أعوام .

وقد (بنى البيت المقدس ، أى كعبة « مكة » على غرار كعبة « المقه » المشيده من قبل فى مناطق كثيرة من اليمن) ص ٨٦ .

فإذا كانت هذه الشركة فى الآلهة على مستوى الجزيرة العربية وشرق أفريقيا وكان (سين) بمعنى السماء ، والمقه بمعنى اللامع أو الثاقب أو القوى ، ص ٨٨ والودّ فى الدلالة العربية العامة بمعنى الحب ، فلم لاتكون كل هذه الأسماء صفات لموجود واحد هو الإله ؟ .

تقول الكاتبة عن « المقه » (إن ورود اسمه بمعان عدة تتلاءم من غير شك ومكانته عند اليمنيين وغيرهم من الأقوام التى ارتبطت بهم ، سواء أكان فى الجزيرة أو على الساحل الآخر للبحر الأحمر ، وكنتيجة لانتشاره ، ومن وحى الواقع الطبيعى والاجتماعى ، فقد تعددت رموزه وصوره ، فرمز إليه بنسر ، ورمز إليه بصورة حية ، ورمز إليه فى اليمن برأس ثور ، وحملت لنا الآثار رءوسا كثيرة علقت أو نحتت على أبواب المنازل ، وفوق أعمدة المعابد ، وداخل بيوت العبادة وعند مداخل المدن ، بل وألبست على أعناق النساء ، والأطفال ، لعلها ترعاهم حيث كانوا وأينما ولّوا) ص ٨٨ / ٨٩ .

وعلى ضوء هذا التفسير يمكن القول إنه الإله الواحد الذى دعا إليه الرسل والأنبياء لكن الناس – على وفق ظروفهم النفسية والحياتية - رمزوا له برموز تقربه منهم ، أو سموه بأسماء محببة إليهم ، وبخاصة أنه كان (ثمة علاقة حميمة قد تولدت بين الملوك والآلهة حتى أصبحوا مرتبطين ارتباطًا كليًا ، فلا يقدمون على عمل إلاّ بعد أن يستشيروها ، ويقدموا لها القرابين ولاينتزعون نصرًا من خصم عنيد إلاّ وبادروا فى تقديم مايلزم تقديمه إليها) ص ٧٢ .

و (لقد انتشرت فى مدن قتبان المعابد الضخمة التى تشهد على أن جزءًا كبيرًا من إمكانيات الدولة قد حشد بصورة رئيسية لبناء تلك المعابد وتأثيثها بأثمن الأثاث

وأغلاه ، وأجمل التحف وأثمنها وفرشت أرضها بأجود أنواع المرمر ، وزينت جدرانها بأنواع من الصدف) ص ٧٧ .

(وكان الإله « المقه » مصدر إلهام ووحي لجبابرة سبأ .. ولقد تمكن ملك سبأ من انتزاع النصر العسكرى بجهود الإله « المقه » الذى حرمس ووق كل السّبئيين والقبائل المشتركة معهم) ص ٨٣

(وشهدت مأرب وشهد معها الإله « المقه » عظمة سبأ وتمدنها فارتفعت راية السدود تبشر بالاستقرار وتفرض التّمدن والحضارة على الأرض اليمنية بعد أن توزعت من مأرب فوق الأرض اليمنية حتى وادى حضرموت ، وانتشرت شبكات الرى لتفرض وحدة الأرض اليمنية ، واستطاع بذلك أن ينتزع لقب الإله القومى ، كما مكنه من أن يصول ويجول فوق الجزيرة العربية إضافة إلى الحبشة فخلد اسمه فى المدينة المقدسة مكة ، وهى أصلا وكما يبدو محوره من لفظه « مقه ») ص ٨٤/٨٥ .

(وقد استعين بالآلهة مرارًا من أجل نزول الأمطار ، حين كانت المنطقة تصاب بجفاف فتقدم الهدايا ويخرج بالأضاحى إلى العراء وتردد أدعية وأناشيد مازالت حتى اليوم فى قرى اليمن) ص ٧٨ / ٧٩ .

.. هذه الصلة الوثيقة بين الناس والإله هل كانت تتم مباشرة أو عن طريق وسيط ؟

لقد (حملت لنا النصوص القتبانية أسماء نساء دخلن فى سلك الكهنة ، وقدمن أنفسهن كمنذورات للمعابد) ص ٧٨ .

وهؤلاء الكهنة – من رجال ونساء – إنما يكهنون بتعاليم متوارثة ، سواء احتفظت بأصالتها ، أو تطورت بفعل المؤثرات المختلفة لكنها تحمل دون شك دلالة على (ظاهرة) النبوة أو الوساطة بين الخالق والمخلوق .

وفى أى صورة من الصور كان هذا الوسيط ، فإن ماجاء بالكتب المقدسة يؤكد

هذه الحقيقة ، ويبرزها فى أكمل كيان ، ومن ثم لم يكن داع ابتداءً إلى إنكارها والسخر ممن يتحدثون عنها .

التوحيد عند اليمنيين .

(أردت أن أخضع هذه القضية لنقاش فكرى معتمدة على الوقائع التاريخية كما أوردتها النقوش والتنقيبات الأركيولوجية ، والتى ترى أن التوحيد الذى عرف فى تلك الفترة إنما هو توحيد بإله مرئى ، تمثل بكوكب من الكواكب الثلاثة الكبيرة الشمس والقمر والزهرة ، وتجسد فى صورة ثور أو وعل أو حية أو بوم .. إلخ ، ثم تحول ذلك التوحيد المرئى والذى استنبط من أجل تأدية أهداف محددة للسلطة والمجتمع إلى توحيد بالإله الغيبى بعد مرحلة حضارية فى شمال الجزيرة أفل نجمها ، إثر الغزو والاحتلال الفارسى البيزنطى للمنطقة وصراعها فى الشمال من الجزيرة ثم فى جنوبها ، وحل الإله الغيبى محل الإله المرئى المتجسد ، واستغل التفكير الناتج عن التأثيرات الحضارية لإعادة بناء صرح حضارة قد تهدم) ص ٩٠ / ٩١ .

تريد أن تقول : إن الإله (استنبط من أجل تأدية أهداف محددة للسلطة والمجتمع) ، فلا حقيقة لوجوده وإنما اخترعه الملوك من أجل تحقيق أهداف محددة للتأثير على الجماهير فى تسيير الجيوش ، ولتسخيرهم فى خدمة الأرض التى هى ملك السلطة الحاكمة ولاضير أن تقام المعابد ، ويوظف الكهنة ، ويستعان بهذه الآلهة (المخترعة) على النصر وعلى إنزال المطر ، وعلى إخصاب الأرض ! !

ومادامت الآلهة تابعة للسلطة فإن آلهة المهزومين تصبح تابعة لإله المنتصرين أو ينتهى دورها بسيادة إله الدولة المنتصرة ، كما انتهى دور الدول المنهزمة .

(لقد ابتدأ التوحيد بإله مرئى كبير ، فى فترة كانت تجنح فيها الدولة إلى التوحيد

لقبائلها وأراضيها الممزقة لتبنى فيها دولة متماسكة الأطراف موحدة الرقعة الجغرافية الواحدة) ص ٩١ .

لكن : كيف يتحول الإله المرئى إلى غيبى (بعد مرحلة حضارية فى شمال الجزيرة أفل نجمها) ؟ .

أيكون (الإله الغيبى) مرحلة فكرية متخلفة ، أم أن اختفاءه وراء ستار الغيب إعلان عن الهزيمة ؟

إن التجريد فى عالم الفكر ، وفى عالم الخيال ، وفى مراحل النمو الإنسانى - خطوة متقدمة بعد التجسيد ، فالصغار يجسدون كل المعانى المجردة فى عالم الكبار ، فلم اختلف أمر الألوهية ، فصار التجريد مرتبطًا بالتخلف الحضارى ؟

ثم إن الحقيقة المرتبطة بنشأة موسى وعيسى ومحمد ، وهم أقرب الرسل إلى التاريخ الموثق ، لايمكن أن تشير - وقد دعوا منذ البداية إلى الإله الواحد المكتمل الصفات - إلى هذه الحقيقة الإنسانية التى تدعيها الكاتبة ، ومن أخذت عنهم ، فقد كان كل من الرسل الثلاثة محاصرًا من أعدائه ، أصحاب السلطة فى المنطقة التى نشأت دعوتهم فيها ، ولم يكونوا ممثلين بدعوتهم إلى التوحيد لإرادة السلطة أو لإدارة الجماهير ، وإن كانت المبادئ التى دعوا إليها لإصلاح الجماهير ولإصلاح الحاكمين أيضًا .

ولقد كانت الدولة المصرية فى عهد موسى إمبراطورية واسعة ، امتد تاريخها زهاء خمسة قرون (١٥٨٠ - ١٠٨٥ ق . م) ، ومن أشهر رجالها تحوتمس الثالث ، وامنحوتب الرابع (أخناتون) ، وأحمس الأول ، ورمسيس الثانى ، وارتبطت دعوة موسى بتخليص اليهود من قبضة فرعون .

وكانت الشام تابعة للدولة الرومانية من قبل مجىء عيسى بقرون ، بل كانت ساحة للمد والجزر بين النفوذ الفارسى والرومانى ، وقد دالت دولة البتراء ودولة تدمر قبل الميلاد ، كما كانت العراق واقعة تحت السلطة الفارسية .

ولم ترتبط دعوة عيسى بتحرير فلسطين من أيدى الروم ، لأنها اقتصرت على المبادئ الأخلاقية العامة .

وجاء الإسلام وقد دالت دولة اليمن ، ولم يكن فى قلب الجزيرة العربية دولة بالمعنى السياسى المعروف ، وكانت الحيرة تابعة لدولة الفرس ، كما كانت غسان تابعة لدولة الروم ، واليمن واقعة تحت سلطان الفرس .

ولم تكن دعوة الرسول محمد من أجل قيام دولة العرب على أنقاض دولة الفرس أو دولة الروم بل كانت دعوة أخلاقية للإنسانية كافة ، الناس سواسية ، ولافضل لعربى على عجمى ولاالأبيض على أسود إلا بالتقوى .

ولو أن (الإله) حاجة اجتماعية أو سياسية لقامت دولة الفرس أو دولة الروم وكل دولة على هذا الأساس ، ولكان ازدهار الحضارات رهنا بازدهار العبادات .

ثم إذا كانت الدعوة التوحيدية التى تمثلت بإله أكبر مرئى ومتجسد قد تطورت إلى التمثل بإله غيبى فلم لَمْ يتم هذا التطور على أرض واحدة ؟

لِمَ لَمْ تتم مراحل هذا التطور على أرض اليمن ، أو تكون دعوة موسى ثمرة هذا التطور على أرض مصر ، وتكون دعوة عيسى ثمرة هذا التطور على أرض فلسطين ، وتكون دعوة محمد ثمرة هذا التطور فى قلب الجزيرة .

إن التوراة تحدث عن الأنبياء السابقين الذين دعوا بدعوة موسى وكان موسى مصدقًا لما جاءوا به ، وجاء عيسى لا لينقض بل ليتمم .. وإن القرآن يحدث عن الأنبياء السابقين ، وكان محمد مصدقًا لما جاءوا به ، فكيف فات هؤلاء الرسل هذه الحقيقة التى جاءت بها السيدة ثريا منقوش ؟

تقول (إن تلك التسميات : ود ، عم ، سين ، المقه - كانت تشير إلى الاله « القمر » معبود الجزيرة العربية الرئيسى ، إلاّ أن تجسيداته ورموزه هى التى تباينت واختلفت من شعب إلى آخر) ص ٩٢ .

إذن ، ليست هناك كثرة ولاتعدد ، وإنما هناك (وحدانية) طال بها الزمن

فأخذت أشكالاً مختلفة فى أذهان عبادها ، الذين شغلتهم صراعات الحياة .

وتذكر من أسباب عبادة القمر أن الإنسان (أحس بعطفه عليه ، حين سهل له رزقه ، فرافقه فى رحلاته التجارية عبر الصحراء المقفرة الموحشة ، فكان سميره وأنيسه فى الليالى الطويلة ، وكان حليفه فى مواجهة قسوة الطبيعة ، وكان لابد من إعادة الجميل إلى رب النعمة لإنسان الصحراء ، وقد أدرك الإنسان ذلك فى فترة أكثر تقدمًا ورقيًا ، فتوجه إليه بكل جوارحه يقدسه ويعبده) ص ٩٧ .

ولاشك فى أن هذه الأسباب المادية للقمر لاتخص الشعب اليمنى أو شعب الجزيرة العربية ، ومن ثم كان ينبغى أن تشترك كل الشعوب التى تتمتع بميزات القمر هذه فى عبادته ، دون حاجة إلى ربط هذه العبادة (بالتقدم والرق) ، لأنها ميزات مادية محسوسة ودائمة وكان يكفى أن تكون هذه العبادة دليل وفاء الشعب العربى وعرفانه للجميل ! !

وتقول : (كان لابد من الإشراف الفعلى على التجارة المتحركة بين الممالك . لذا فقد تطلب هيمنة مملكة قوية ، وإشراف إله جبار مقاتل ذى جبروت مطلق . وكانت سبأ هى المهيأة لذلك،فقد توفرت فيها شروط هذا الحامى) ص ٩٩ .

ولكن القمر الوديع الناعم الرقيق لايصلح لهذه المهمة ، ولعل الشمس أحق بالترشيح لهذا الدور ، غير أن أهل اليمن عُرفوا بالرقة والغزل ، فلما أحبوا القمر، والحب سيد الموازين،لم يعدلوا بالقمر إلهاً .

وتقول : (قد احتاج تنظيم تلك الموارد الطبيعية المبعثرة بين الممالك إلى تجميع لها ، فوضع ملوك سبأ أيديهم عليها بعد أن جهزوا الحملات العسكرية باسم الإله الكبير « المقه » ووجدوا فى طرح فكرته عاملا مهماً لإشعال الحماس فى النفوس ، والالتفاف حول الملك ، ووجدوا تحت جناحه سترًا يخفون وراءه أطماعهم فى موارد الممالك الأخرى) ص ١٠١ / ١٠٢ .

إذن ، لقد كان (الإله الكبير المقه) موجودًا قبل أن يجهزوا الحملات

العسكرية وإن (طرح فكرته) إنما كان عامل تبشير به ودعوة إليه ومن ثم يمكن أن تكون الدولة فى خدمة الإله لاأن الإله فى خدمة الدولة ، بدليل أن (التركيز على أسر الأطفال .. جاء ولاشك لاعتبارات عدة منها سهولة نقلهم وإذا بهم فى بطن سبأ وقبائلها وإعادة تربيتهم حتى يصبحوا من جنود سبأ المقاتلين لترتفع راية الإله السبئى « المقه » وقد تم كل ذلك باسم الإله « المقه » وتحت رعايته) ص ١٠٨ .

ولقد قام ملك سبأ (كرب أيل وتر) بإعادة (القتبانين إلى مدنهم « ثلثان ، وصنوت ، وصيدوم ، ورداع ، وميفع بحبام » ، لا لشىء إلا لأنهم تحالفوا مع الإله السبئ « المقه ») ص ١٠٨ .

وقد (فرضت عليهم الضرورة الملحة فى المساواة مع أفراد القبيلة المنتصرة التقرب إلى إلهها للحصول على المساواة الاجتماعية الكاملة بعد أن ضمنوا لأنفسهم المساواة القبلية) ص ١٠٩ .

بهذا يصبح تأثير الإله على الحياة تأثيرًا قويًّا ، يشمل السلم والحرب والزراعة والتجارة ، وبهذا يكون الدين والدولة شيئًا واحدًا ، بالرغم من أن (اليمن — كدولة من دول الشرق القديم — لم يعرف الملكية الخاصة نتيجة لتنوع وطبيعة الأرض وتربتها وطبيعتها الجغرافية الصحراوية) ص ١١٠ ، وهذا ما أثار - دهشة و (تساؤلات ماركس حول كيفية وعى الشرقيين لقضية الملكية الفردية للأرض ورفضهم لشكلها الإقطاعى) ص ١١١ ، مع أن (نظام الحكم كان قائمًا على السخرة ، لأن المشاريع الكبيرة كانت تستلزم من الدولة تسخير جماعات كبيرة من الفلاحين بالدرجة الأولى والقبائل المهزومة لإنجازها) ص ١١٢ .

وبهذا تضع السيدة الكاتبة - دون قصد - نقطًا على غير حروفها ، أو تضع حروفها تحت نقط غيرها ! !

علاقة اليهود باليمن . .

ومن حيرتها بين الحروف والنقط أن فرقت بين (العبيرو) و (بنى إسرائيل) ، و (الموسويين) و (اليهود) .

وذكرت (أن التوحيد الأخناتونى قد جاء كنتيجة للتطور الذى لحق بالفكر الإنسانى الدينى ، وهو ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أرق) ص ١٢٢ ، وأن (موسى كان قائدًا عسكريًا اعتنق الفكرة الأخناتونية التوحيدية . . وحرص – على حد رأى فرويد – على تعليم أتباعه أسس التوحيد الأخناتونى ، وجاء لهم ببعض الشرائع المستمدة أصولها من التشريع الفرعونى ، وقد ارتد قومه عن إيمانهم برب أخناتون ، كما حصل لأقوام الإمبراطورية المصرية ، وعادوا يعبدون العجل وهو ما زال على قيد الحياة ، فتألم لذلك كثيرًا . . وقيل إن لموسى شرائع ووصايا إلى أتباعه ، إلّا أن المؤرخين لم يعثروا على مثل تلك الشرائع ، وبذلك انتهت الفكرة الموسوية وانتهى معها أتباعها ، على الرغم من المحاولات لإطالة عمر جماعة هى أصلا بلا وجود ، وما دمنا لم نعثر على براهين علمية حقيقية لذلك فإن كل ما قيل يبقى بالنسبة إلينا حكايات نسجها الخيال الدينى لأهداف سياسية واقتصادية بعيدة المرام) ص ١٢٦ .

وما دامت هذه (الأهداف سياسية واقتصادية بعيدة المرام) واليهودهم فى الدرجة الأولى أصحاب هذه الأهداف ، إذن ، فكيف (لم يكن أمام اليهود من نموذج يمكن الاحتذاء به غير سبأ والحضارة اليمنية التى كانت مزدهرة حينها) ص ١٣٤ ، وكان (حلم اليهود ، بدولة على نفس النسق فى شمال الجزيرة ، خاصة بعد أن أحسوا بسيطرتهم الفعلية على تجارة مدن الهلال الخصيب : سوريا ، فلسطين ، مصر ، وبلاد الرافدين) ؟ ص ١٣٥ .

إنه لم يكن من مبرر لنبش هذا الماضى اليهودى ، بحثًا عن موسى وجماعته وعن

تشريعاته ووصاياه ، إلا لأنهم وجدوا فى هذا الماضى القوة التى يرتكزون عليها فى بناء الدولة الحديثة على شاكلة دولة اليمن .

وإذا كان فى التراث اليهودى ما يساعد على تجميع (الشتات) وحفز الهمم فلا حاجة إلى الارتكاز على (إله) يمنى ! !

لقد روت لنا (القصص والحكايات) عن علاقة بلقيس ملكة سبأ بسليمان ، وتحدثت التوراة عن هداياه التى (سلبت لُبَّ سليمان وسحرته) .

(وبصرف النظر فى التخريجات الدينية والأبعاد السياسية للخلط الزمنى فى سرد الأحداث فإن ذلك يعنى رغبة اليهود بتفكيرهم التجارى فى إيجاد علاقة ودية مع أصحاب تلك الخبرات ، إن لم يكن من الممكن الاستحواذ عليها) ص ١٣٧ .

(وكانت طموحات اليهود تتمركز فى محاولاتهم الكثيرة – لا نتزاع مكانة سبأ كوسيط تجارى بين الشرق والغرب أو حتى منافسة تجارها فى تجارتهم وتصوروا أن ذلك لن يتأتى لهم إلّا بعد التماسك بين فئاتهم المشتتة فى العالم ، وإخضاع تلك الفئات لفكرة دينية واحدة تمثلت فى التوحيد بالإله « يهوه » على غرار التوحيد بالإله « المقه » القوى المتجبر بجبروت سبأ وعظمتها) ص ١٣٨ .

ولو أن الأمر اقتصر على هذه المكاسب المادية ، فلم تكن ثمة حاجة إلى موسى المصرى وأخناتون ، ولا إلى موسى المديانى وشعيب ، ولم تكن حاجة إلى (أتون) أو (يهوه) ، ولا إلى تشريعات فرعون ووصايا شعيب . .

ومع هذا فالتوراة قائمة على أنها تشريعات موسى ، والملوك اليهود هم أبناء هرون أخى موسى ، والكهنة اليهود هم أبناء (لاوى) أحد الأسباط الذى من نسله موسى ، وقصة الخليفة منذ آدم إلى موسى تقوم على سلسلة من الرجال اتصل نسبهم .

لكن الكاتبة الباحثة عن الخطأ تصر على أن اليهود (قد حاولوا فى القرن الرابع بعد الميلاد النفاذ إلى اليمن ، وتم بالفعل التقارب بينهم وبين الحميريين إثر لقاء ملك

حمير « تبع أسعد كرب » بحبرين من أحبار يثرب ، دخلا إليه - كما تذكر كتب التاريخ - عن طريق الدين ، وتمكنا من إقناعه فاقتنع ودخلت اليهودية فى القرن الرابع الميلادى إلى اليمن عن طريق السلطة فى اليمن ، وقد أخذ الملك « تبع أسعد كرب » الحبرين معه إلى اليمن ، وهناك قام بفرض الدين اليهودى الجديد ذى الأصول اليمنية بقسوة وعنف ، إلى الحد الذى أحرق وأباد معارضيه) ص ١٣٩/١٤٠ .

(واعتقد اليهود أن حكمهم قد تحقق فى تأسيس دولة موالية لهم ، لمت شعثهم فى أعقاب حملة الرومان على يهود فلسطين وتدمير هيكلهم . لكن الروم ظلوا يلاحقونهم حتى اليمن فحركوا أتباعهم فى الحبشة واندفع الفرس يدعمون الاتجاه الوطنى فى جنوب الجزيرة محاولين جنى ثمار النقمة اليمنية) ص ١٤٠/١٤١ .

(ومن هنا ، فلم تكن فكرة التوحيد اليهودى المتجسد فى الإله « يهوه » ، أو حتى الوحدانية التجريدية متأثرة بالتوحيد الأخناتونى ، كما يعتقد البعض ، على الرغم من وجودتشابه كبير بين نشيد أخناتون فى الإله « أتون » إله الشمس وبين الزامور رقم ١٠٤ التوراتى ، ذلك أن التوحيد الأخناتونى هو أول توحيد كونى قائم على المحبة والإخاء والسلام) ص ١٤١ . أتلك المقدمة تؤدى إلى هذه النتيجة ؟

أمن المعقول أن اليهودية التى غزت اليمن بعد أن اكتمل وجودها على أرض فلسطين وبابل ، إبّان الأسر ، وصار لها أعداء يطاردونها حتى جنوب اليمن تستوحى الوحدانية من أرض اليمن ، مع أن التوحيد اليهودى ارتقى إلى مرحلة التجريد ، وظل التوحيد اليمنى فى مرحلة التجسيد وهى مرحلة متخلفة ، على حين لا تستفيد اليهودية من الدين المصرى ، وهى التى نشأت على أرض مصر ، وهاجرت إلى أرض واقعة تحت نفوذ مصر ، وكان زعيم هذه الديانة اليهودية من أتباع الديانة المصرية ، كما يقول فرويد ؟

وإذا كان انجلز يتحدث عن (الكتاب اليهودى المسمى « بالكتاب المقدس »

فيرى أنه ليس سوى ذكرى تقليد عربى قديم) ص ١٤٤ . فأين هذا الكتاب اليمنى الذى أخذت عنه التوراة ؟

ثم إن الدين اليمنى - (المستنبط) لأهداف سياسية واقتصادية - ارتبط بالحضارة اليمنية وهى (حضارة دنيوية عملية ، اهتمت بالطبيعة والإنسان ، وأولت هذين القطبين فيها جل طاقاتها وقدراتها) ص ١٠١ ، عن طريق بناء السدود وإقامة المشروعات الزراعية والتجارية والعسكرية على حين تتحدث التوراة عن حركة الإنسان بحركة الإله الذى يتابع شعبه المختار بتعاليمه وحمايته أينما سار .
أليس حديث (التوراة) عن إبراهيم وموسى يوجب القول بأن (التقليد العربى القديم) إنما هو ما تمثل فى صحف إبراهيم الذى كانت رسالته بين مصر والحجاز وفلسطين ، وفى صحف موسى التى صار الشعب اليهودى يحملها فى (التابوت) أينما سار ؟

وإذا كان (اليهود ، عبر تاريخهم قد شكلوا - كما يرى ماركس - مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادى محدد بعيد عن الثقافة الرومانتيكية التى تمثلت بالفكرة الأخناتونية فى التوحيد ، ولقد جاء توحيدهم متأثرًا بالتوحيد اليمنى المتشكل عبر ظروفه المادية المحددة) ص ١٤٦ . فمن أين جاء التشابه بين مزامير داود وأناشيد أخناتون ؟ ص ١٤١/١٤٢ وهل كان كل ما جاء فى التوراة والتلمود مطبوعًا بالطابع المادى ؟

يبدو أن ماركس اليهودى - فى سبيل الانتصار لماديته - أخذته الغفلة أو تغافل عن أسفار راعوث وأيوب والجامعة والأمثال والمزامير ونشيد الأنشاد ، وأرمياء ، ومراثى أرمياء وحزقيال ، وزكريا ، من صفحات أدبية راقية فضلاً عن التشريع المتمثل فى سفرى اللاويين والعدد .

ولقد نسيت الكاتبة أن اليهود غزوا بدينهم اليمن ، فى عهد (تبع سعد كرب) وكان التوحيد بالإله « يهوه » فى عهد الامبراطورية الفارسية حين تمكن اليهود من أن

يقوموا بدور تجارى أساسى بين مصر وبابل) ص ١٤٧ ، وبهذا تكون اليهودية قد غزت فارس قبل أن تغزو اليمن مع أن فارس كانت تدين بدين له طقوسه وتشريعاته التى ترقى على ماكان باليمن ! !

الوحدانية التجريدية عند اليهود واليمنيين . .

ثم إن الكاتبة ضربت صفحاً عن هذا كله وعرضت القضية من زاوية أخرى ، فذكرت (أن الفكر الإنسانى ليس سوى بُنّى أقيم أساسها وهيكلها العام من مجموعة الثقافات الوطنية والقومية ولشعوب وأمم الأرض ، خاصة تلك التى عاشت فترات حضارة وتمدن ، ومن هنا فقد أضاف كل شعب ، بما يملك من عبقرية فكرية . إلى مجموع معطيات الإنسانية آراء فكرية عقائدية وفلسفية وثقافية وقيماً حضارية تداولتها البشرية فيما بينها) ص ١٥٠/١٥١ .

(واستطاعت الذهنية الشرقية متجسدة فى الذهن اليهودى ، أن تخوض فى عملية التجريد فى الإيمان بإله متوحد فى ذاته . . وكان اليهود أكثر الناس قدرة على استيعاب نتاجات التداخل بين الحضارات بحكم ظروف الشتات التى عاشوا فيها) .

(وتمكن اليهود من انتزاع شرف السبق التاريخى لذاك الحدث الذهنى الذى شكل مرحلة انعطاف حضارى بالنسبة للإنسان) ص ١٥٠ .

فقد (تلقف اليهود الفلسفة الإغريقية والهيلينية على وجه التحديد ، وهم فى الشتات بشغف عظيم ، حين كانوا يبحثون لهم عن حل لفاجعتهم التى حلت بهم بعد السبى البابلى ، فسعوا جادين لإيجاد كيان قومى لهم يجتمع فيه شتاتهم ، وكان لابد من فلسفة وقيم معينة تدفعهم أولا وقبل كل شىء للتماسك خوفاً من الذوبان فى أمم وشعوب الأرض التى وصلوا إليها فى شتاتهم ذلك . . ولم يكن هناك من سلاح غير الدين لإثبات الذات ، وهو وسيلة العصر المعروفة حينها) ص ١٥١ .

. . فإذا عرفنا أن الأسر البابلى تم بعد عهد سليمان ، الذى بلغت الدولة اليهودية

فى عهده أقصى ماكانت تحلم به ، فانقسمت الدولة ، بين رحبعام ويربعام ، إلى يهوذا ، وإسرائيل (٩٢٢ ق . م تقريبا) فلما قويت دولة الآشوريين ، توجه سرجون (٧٢٢ق م) إلى الشام واستولى على السامرة عاصمة إسرائيل ، ونقل كثيرًا من سكانها أسرى، ثم قضى على دولة يهوذا واستولى على القدس .

وحين سقطت القدس فى يد نبوخذ نصر (٥٩٨ ق . م) ساق أمامه الملك يهوياقين والنبى حزقيال ، ومعهما سبعة آلاف رجل مسلح وألف عامل مكبلين بالحديد فكان هذا الأسر البابلى الأول[1] .

وكل هذا تم بعد تاريخ حافل للشعب اليهودى ، منذ خروج موسى به من مصر (١٢١٣ ق . م) إلى أن تولى سليمان ، عهد الاستقرار والازدهار (٩٦٠ – ٩٢٥ ق . م) أى بعد ثلاثة قرون تقريبًا .

فهل نسى اليهود هذا التاريخ تحت أثر النكبات التى لحقت بهم فى زمن الآشوريين والبابليين أم زادتهم تمسكًا به ، حتى أكب الحاخامات على هذا التاريخ يدونونه ويضيفون إليه حتى كانت التوراة التى تحتوى على تاريخ إسرائيل إلى سنة ٢٤٠ ق . م أما عن التلمود فلم يبدأ تدوينه إلا فى وقت متأخر يكاد يصل إلى عهد يهوذا هاناسى أحد حاخاماتهم فيما بين ١٩٠ ، ٢٠٠ للميلاد .

إذن فقد كان لليهود دور عقائدى شفهى ومدون قبل أن يصلوا إلى أرض اليمن .

فإذا كان سقراط ، أستاذ أفلاطون قد ولد سنة ٤٦٩ ق . م[2] أى بعد الأسر البابلى بأكثر من قرن من الزمان ، وإذا كان الإسكندر الذى انتشرت الثقافة اليونانية على يديه قد غزا فلسطين سنة ٢٣٢ ق . م فكيف أخذ اليهود عن الفلسفة اليونانية فكرة التجريد ؟

---

(١) انظر للمؤلف : اليهود تاريخًا وعقيدة – كتاب الهلال سنة ١٩٨١ ص ٢١ وما بعدها .

(٢) يذكرون أن حياة سقراط كانت بين (٤٧٠ – ٣٩٩ ق . م) وأفلاطون (٤٢٩ – ٣٤٧ ق . م) وأرسطو ٣٨٤ – ٣٢٢ ق . م) .

obeikandi.com

وإذا كانت (فكرة التوحيد الموسوية قد بقيت كأثر غامض ومبهم إلا أنه موروث ومستمر يفعل فعله فى الخفاء ، وتوطدت رويداً رويداً سطوته على النفوس إلى أن قدر له فى خاتمة المطاف – أن يحول الإله يهوه إلى إله موسوى ، وأن ينفخ فى الحياة من جديد ديانة كان موسى قد أقامها قبل قرون طوال ثم كان مآلها الهجر) – كما يقول فرويد ص ١٥١/١٥٢ فما الهدف من قولها : (إن ذلك التوحيد الموسوى ليس سوى الوحدانية التجريدية والتى جاءت عبر تلك المصالحة بين القيم الدينية الشرقية التى كانت سائدة آن ذاك وبين الفلسفة الغربية الإغريقية بعد أن تغلغلت فى الأرض العربية ، خاصة المعْلم اليونانى منها ، ولقد تلقفها الشرق بإيمان عظيم حين رأى فيها المنقذ له من ضياعه بعد أن انهارت حضارته ومدنه العريقة الواحدة بعد الأخرى فقاد ذلك إلى ظهور الفكرة الواحدة كمثال الخير عند أفلاطون ، واللوغوس أو الكلمة عند الرواقيين ، ولقد حمل الفلاسفة اليهود تأثراتهم تلك إلى الديانة اليهودية ، فإذا الإيمان اليهودى بالإله يهوه يمتزج مع تلك الفلسفة التجريدية ليكونا معاً « وحدانية تجريدية » يظهر فيها الله بمظهر جديد ، ليس له رمز ، ولا صورة ، ولا تمثال ، بل هو مفهوم مجرد جاء على لسان موسى) ص ١٥٢ .

وإذا كان ما وصل إليه المزج بين الفكر الشرقى والفكر الغربى هو (مفهوم مجرد جاء على لسان موسى) فقيم كانت هذه الرحلة الشاقة ؟

إن أثر الفكر الهيلينى تجلّى عند (فيلون) من أبناء مدرسة الإسكندرية (الأفلاطونية الحديثة) ولكن فيلون (تخطى أفلاطون بعد أن تم له عملية استيعاب فكرة أفلاطون فى مثال الخير ، فصار هذا المثال إلى ما فوق الواحد ، ليصبح الله أفضل من الفضيلة وأفضل من العلم) ص ١٥٣ ، فهو الذى (يحتوى العناصر ويهيمن عليها ولا يحتويه شىء ، وهو فوق الزمان والمكان لأنه فى كل مكان) ص ١٥٣/١٥٤ .

لكن هذه المعالم جميعاً وصل إليها (الفكر الموسوى) وكل ما زاد على يد فيلون

المتأثر بالمذهب الحلوق الصوف الرواق هو أن (كل شيء مفعم بالإله) ص ١٥٤ وهو بهذا أيضًا يبعد عن الجذور الموسوية ، لكنها شروح تزداد عمقًا وسعة .

فإذا كان الإنسان قد انتقل إلى (المفهوم المجرد) وتوصل إلى (القناعة بالتوحيد أو الوحدانية المطلقة) ، وكان (من جملة تلك المجتمعات المجتمع اليمنى) فإن دور الفكر اليهودى أسبق على الفكر اليونانى الرواق .

(لقد بدأ ذكر «ذى سموى» فى نص مع الإله الهمذانى «تاب ريام» ثم بدأ فى الابتعاد عن مرافقة آلهة أخرى فى نصوص متأخرة ، يرجع البعض منها إلى ما قبل الميلاد بنصف قرن وقد وصلت تلك العقيدة إلى الكمال اللاهوتى بعد أن صار إله السماء والأرض) .

(كما ظهرت عبادة «الرحمن» فى نفس الفترة التى ظهرت بها عبادة رب السماء ، كما وردت لفظة «الرحيم» فى نصوص صفوية وأخرى سبئية) ص ١٥٦ فهل يعد هذا دليلا على الوحدانية وتعدد الصفات ، لا على كثرة الآلهة ، كما يعد دليلا على أثر اليهودية التى دخلت مع (تبع سعد كرب) أو يكون دخول فكرة التوحيد مع حجاج بيت الله الحرام الذى أذن إبراهيم الخليل بالحج إليه من قبل دعوة موسى عليهما السلام بخمسة قرون أو تزيد . ؟

(يذكر الإخباريون وتحفظ لنا الكتب ذكر جماعة عُرفت «بالأحناف» كانت تدعو إلى عبادة الرحمن سكنت اليمن ورفعت صوتها بالتوحيد ، وقد وردت لفظة «حنف» فى النصوص العربية الجنوبية وهى بمعنى «صبأ» أى مال وتأثر بشىء ما) .

(ومازال تاريخ نشوء الحنفية فى اليمن غامضًا ، ومن المحتمل أن تكون امتدادًا لديانة «ذى سموى» التى يعتقد أنها كانت ضمن العبادات السائدة فى القرن الأول قبل الميلاد فى اليمن) .

(وقد كان لعقيدتهم أربعة أركان – كما يذكر الفخر الرازى – هى : حج

البيت واتباع الحق ، واتباع ملة إبراهيم والإخلاص لله وحده) .

(ولقد استمر ذلك المذهب ينتشر ويتوسع ولم يعد مقصوراً على جماعة من الناس ، وإنما أصبح يمثل تياراً قوياً خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة ، على رأس ذلك التيار أسماء كبيرة ، كأمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة الإيادى ، وأسعد أبو كرب الحميرى ، وعلاف بن شهاب التميمى ، وخالد بن سِنَان العبسى ، وغيرهم وكلهم من بيوتات يمنية وقرشية معروفة . ويبدو أنها كانت بدعوتها تلك تبحث عن مخرج لأزمة الحضارة المنهارة فى جنوب الجزيرة ، ولم تتمكن من العثور على حل لذاك الاختناق الحضارى إلّا فى الدعوة التى خرجت من قلب الجزيرة العربية رافعًا رايتها الرسول العربى محمد بن عبد الله ، عاثرًا على الحل والدواء ، بعد أن عرف المرض العضال الذى أصاب الجزيرة العربية بجنوبها وشمالها .

(واستطاع القائد العبقرى أن يصوغ الروح العربية من جديد ويخلق منها أمة نطقت بلغة واحدة ، وآمنت بفكرة واحدة ، كمقدمات تاريخية لخلق الكيان الواحد لها بأسسه المادية والحضارية ، وليبنى الدولة العربية المركزية الواحدة مستوعباً الفكر الإنسانى والحضارى بعامة) ص ١٥٨/١٦٠ .

* * *

هذا . . وما أظن هذه الدهاليز الفكرية المتداخلة التى تاهت فيها الكاتبة أكثر من مائة وستين صفحة ، لتصل إلى هذه النتيجة ، فى حاجة إلى تعليق .